دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية
مجلد 20 العدد 01 السنة 2020 ص ص 228-246
ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

المتكلم بين الحِجاج واللَّجاج
مقاربة بلاغية حجاجية لرسالة أبي حيان التوحيدي إلى القاضي أبي سهل[1]

The speaker between argumentative relevance and discursive impertinence

كريم الطيبي [1]

[1] الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين، تطوان- المغرب، karimtaibi1988@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020-05-16 تاريخ القبول: 2019-06-14

Abstract:

This study aims to analyze one of the marginalized texts of classical Arabic literature, namely the letter of Abu Hayyan Al-tawhidi addressed to Al-Qadi Abi Sahl, which is a reproach to the latter about his books. Our interest in this text is due to two main reasons; the first refers to the importance of this letter which constitutes a crucial fact in the life of A-ttawhidi, since he burned on his own his writings after the indifference of his society. Indeed, the official institutions of the time did not appreciate its true value and they did not live up to the author's

المؤلف المرسل: كريم الطيبي .
البريد الالكتروني: karimtaibi1988@gmail.com

expectations. As for the second motive, it is a question of approaching this text from a new rhetorical perspective, since the analysand will adopt a rhetorical and argumentative approach aimed at revealing the different persuasive procedures as well as the pragmatic and illocutionary techniques employed. by the speaker to defend his position.

Keywords:
The speaker, Hadjadj, The strategy, The rhetoric.

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى دراسة أحد النّصوص المهمّشة في التراث النثري العربي القديم، والمتمثل في الرسالة التي ردّ بها أبو حيّان التّوحيدي على صديقه القاضي أبي سهيل بعد أن راسله يعاتبه على حرق كتبه، واهتمامنا بهذا النّص راجع إلى سببين رئيسين؛ أما الأول فيعود إلى أهمية هذه الرسالة، إذ توثّق حادثة مهمة في حياة التّوحيدي، إذ تجرّأ على حرقِ مؤلّفاته بعد أن خذله مجتمعه، ولم تقدّر المؤسسات الرسمية قيمتها، ولم تستطع أن تحقق له ما كان يطمح إليه من رفعة ومكانة. فيما يتجلى السبب الثاني في تحليل الرسالة من منظور مستجدّ؛ إذ يتبنّى التّحليل مقاربة بلاغية حجاجية تقوم على قراءة الرسالة انطلاقا من خلفية حجاجيةتتغيا كشف طرق الإقناع فيها ورصد مختلف التّقنيات التّداولية التي وظّفها المتكلم ليدافع عن موقفه في حرق الكتب.

الكلمات المفتاحية:

المتكلم، الحجاج، الاستراتيجية، البلاغة.

مقدّمة:

توثّق رسالة أبي حيّان التوحيدي التي أرسل بها إلى صديقه القاضي أبي سهل حادثة تاريخية مهمة في حياة التوحيدي، وهي الحادثة التي قام فيها بإضرام النار في كتبه. وتعكس هذه الواقعة أقصى درجات التمرّد عند التوحيدي؛ فقد بلغ شأوًا كبيرا من التأزم والبؤس جعلاه يثور على كل شيء، على نحو ما سنجده في رسالته يثور على كتبه التي قضى سنين عددا في تأليفها وجمعها وتدوينها، وقد

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

انبرى إلى التخلص منها تعبيرا عن انتقامه بعد أن قلب له الزمن ظهر المجن، وخانته كتبه التي لم تنفعه ولم تمكنه من بلوغ المراتب التي كان يزحف نحوها.

أولا-الرسالة وسياق التواصل:

تتضمن الرسالة ردَّ التوحيدي على صديقه القاضي أبي سهل، وبالرغم من أن رسالة القاضي لم تُسجّل في كتب التوحيدي، إلا أن هذه الرسالة تشير إلى بعض ما ذكره أبو سهل في رسالته؛ فقد بعث بها إلى التوحيدي يستفسر عن أسباب إقدامه على حرق كتبه، معربًا عن استنكاره واستيائه منه، ومبديًا الحسرة التي غمرت قلبه، ومما يدلّ على هذا ما جاء على لسان التوحيدي:"وما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمي إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء". وبالنظر إلى هذه الإشارات، يمكن استشفاف البعد الحواري بين المتكلم الحاضر/ التوحيدي، والمتكلم الغائب الحاضر/ أبو سهل، ويتسم هذا البعد الحواري بالتخالف والتباين؛ فالقاضي أبو سهل أدان ما قام به أبو حيّان، والواضح أنه انطلق من قيمة مشتركة تنبني على اعتبار الكتاب ثمرة معرفية مقدسة، كان لها عظيم الأثر في تحصين الثقافة الإنسانية، ولا أدل من هذا ما أعرب عنه كبار العلماء والشعراء والعلماء في حديثهم عن الكتاب، وإبرازهم لمكانته العليا، وقيمته المثلى. وبناء على هذا التصور انطلق القاضي أبو سهل، فقد آلمه أن يتجرأ أبو حيّان التوحيدي على هذه القيمة الثقافية ويحولها إلى رماد، ومن ثمّ، راسل صديقه ليستوضحه فيما اقترفت يداه، ونلمس هذا في بعض الملفوظات مثل:" وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك، أو بالعذر إن استوضحت" وأيضا:"هذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار". تفصح هذه العبارات عن مطلب أبي سهل في اعتذار التوحيدي عن فعله الشنيع، وسلوكه الوضيع، بيد أن هذه الملفوظات نفسها تفصح عن تلكّؤ التوحيدي عن الاعتذار، ومحاولته تبرير هذا السلوك الذي يتنافى مع المشترك الثقافي والديني لمحيطه الاجتماعي. والملاحظ

أن المتكلم لم يقدّم الاعتذار وإن موّه المخاطب بأنه فعل، (هذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار). بل تمادى في الدفاع عن قضيته وتبرير فعلته، وهو ما يمكن أن نطلق عليه بـ"استراتيجية اللّجاج"[2].

ثانيّا-المتكلم واستراتيجيات اللّجاج:

عمد المتكلّم إلى استراتيجية اللجاج بوصفها استراتيجية خطابية يدافع بها عن صنيعه المتمثل في حرق كتبه، على الرغم من علمه بأن هذا الفعل خطيئة لا يقبلها أحد، وتنبني هذه الاستراتيجية على أرضية سجالية خصبة وصلبة معضدة بتقنيات حجاجية متنوعة ومختلفة، توسّل بها التوحيدي ليفلح في تأكيد صحة أطروحته، ودحض أطروحة الخصم/ أبي سهل.

انبرى المتكلّم بادئ ذي بدء إلى تكييف نفسه مع مخاطبه، عن طريق تشييد موضع مشترك بوصفه تقنية فعالة لاستمالة المخاطب قبل عرض الحجج[3]، يقول التوحيدي: "فعجبت من انزواء العذر عنك في ذلك، كأنك لم تسمع قارئا يقرأ قوله جلّ وعزّ: (كُلّ شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) [القصص:88]، وكأنك لم تأبه لقوله تعالى:(كل من عليها فان) [الرحمن:26]، وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر مادام مقلبا بيد الليل والنهار، معروضا على أحداث الدهر وتعاور الأيام."[4] ينطوي هذا الملفوظ على بنية موضعية تتأسس على مبدإ الحس المشترك، بحيث ركن المتكلم إلى الانصهار في القيم والمبادئ التي يؤمن بها المتلقي، وتتجلى المواضع بما هي "القاسم المشترك من التقاليد والمنظومات والأفكار والمبادئ بين أفراد الأمة الواحدة"[5] في استرفاد المتكلّم بعض الآيات من القرآن الكريم بوصفه نصًّا مقدّسًا، وتتضمن الآيتان المستشهد بهما "إخبارا بأن الله الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت"[6]. ويعد الإيمان بفكرة فناء المخلوقات وزوال الموجودات من المسلمات التي يعتقدها المخاطب، وقد استثمرها المتكلّم لبناء استراتيجيته الحجاجية. هذه المسلمات " تضطلع بدور أساس في بناء الحجاج وحمل المتلقي على الإذعان لدعوى المتكلم. إنها نقطة ارتكاز الحجاج وانطلاقه"[7].

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

وبما أن المواضع هي "الأماكن التي تختبئ فيها الحجج"[8]، فإن الموضع المشترك الذي أثث به المتكلم ردّه قد حوى قياسا جدليا يضطلع بوظيفة الدفاع عن أطروحته، وفي الآن نفسه تفنيد دعوى المخاطب، ويمكن توضيحه كما يلي:

المقدمة الكبرى: كل المخلوقات هالكة وفانية.

المقدمة الصغرى: الكتب التي أحرقت مخلوقات.

النتيجة: الكتب هالكة وفانية.

ويدعّم المتكلم هذه الحركة الحجاجية بمعطى عقدي آخر يجعله سببا من أسباب اجترائه على إضرام النار في كتبه، ويتعلق الأمر بالاستخارة يقول: "فليهن عليك ذلك فما انبريت له ولا اجترأت عليه حتى استخرت الله عزّ وجلّ فيه أياما وليالي"[9]. وإضافة إلى هذا، يتحجج المتكلم بفعل خارجي أملى عليه قرار التخلص من كتبه، يقول التوحيدي:" وحتى أوحى إليّ في المنام بما بعث راقد العزم، وأجدّ فاتر النية، وأحيا ميت الرأي، وحثّ على تنفيذ ما وقع في الرّوع وتريّع في الخاطر"[10]. يتبدّى لنا أن المتكلم يراهن باستدعائه لهذه "المقبولات"[11] على استدراج المتلقي/ القاضي أبي سهل، ومحاولة إشراكه في المخطط الحجاجي الذي شيَّدهُ: فالاعتقاد بـ"فناء الموجودات"، و"الرؤيا"، و"الاستخارة"، من المبادئ المشتركة بين المتكلم والمخاطب[12]، الأمر الذي سيجعل المتلقي قابلا لتصديقها، ومن ثم الوقوع في شرك المنظومة الحجاجية التي صاغها المتكلّم.

إن هذه المقدمات التي أثث بها التّوحيدي ردّه على رسالة أبي سهل لا تنهض بتفعيل عملية الإقناع، وبتعبير آخر، راهن المتكلّم على فعاليتها في استمالة المخاطب وجذب اهتمامه، لكنه لم يعوّل عليها في إحداث فعل الإقناع[13]؛ إذ إن السطو على ذهن المخاطب وتعديل موقفه المناوئ والمتشدد إزاء قضية حرق الكتب وإقناعه بأن هذا الفعل هو الصحيح، كل هذا مُحْوج لبناء حجاجي محكم، تتضافر فيه الآليات الخطابية الفعالة، وتتعاضد فيه التقنيات الحجاجية المؤثرة.

وتبقى صورة المتكلم حاضرة و"منقوشة في الخطاب تأثيرا في تنفيق العقائد والآراء واستدعاء القبول والتّسليم، وكذلك شأن التأثيرات المسلّطة على العواطف والأهواء. ولكنّ الخطاب عندما يجري بين متكافئين متمرسين بفنون الإقناع يعوّل كثيرا على قوّة الحجّة التي تخاطب العقول القادرة على الفهم والتّجريد."[14] وعليه، انتقل المتكلم إلى مخاطبة العقل، مؤسسا حركة حجاجية تقوم على الحجج المنطقية.

ثالثا-المتكلّم واستراتيجيات الحجاج:

يؤطر المتكلم حركته الحجاجية بتقديم تعريف للعلم، يقول: "إن العلم حاطك الله يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرا عن العلم كان العلم كلا على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلا وأورث ذلا وصار في رقبة صاحبه غلا."[15] وأول ما يمكن ملاحظته هو إعادة المتكلم بناء الخطة الحجاجية على قواعد جدلية تسترفد أسسها من المنطق والحجاج، عكس ما كان منه في الجزء الأول من رسالته. ويتجلى هذا التحول في تقديم أسباب أخرى كانت وراء حرق التوحيدي للكتب. ويمكن القول إن هذا التعريف ينحو منحى حجاجيا إذ إن الغرض منه ليس تقديم المعرفة وإنتاجها، بقدر ما يضطلع بأبعاد تداولية، فـ"التعريفات في اللغة الطبيعية لا تكون اعتباطية[16]، بل إن توظيفها في الخطاب "قائم على التبرير الحجاجي"[17]؛ لأن "التعريف يحرّك العملية الاستدلالية ويقدّم اختيارات دون أخرى، كما يشكل حكما على الأشياء أو تقويما لها"[18]. ويمكن رصد حجاجية التعريف الذي صاغه التوحيدي في الرسالة، في كونه يربط العلم (الكتب) بالعمل، أي إن العالم ملزم بتطبيق علمه في الواقع، وتمثل أفكاره وتصوراته ومعتقداته في أفعاله وسلوكاته، ولا شكّ أن تصور هذا التعريف قائم –كذلك-على مسلمات يؤمن بها المخاطب[19]، فالقرآن الكريم ينص على مبدإ ترجمة الأقوال إلى الأعمال[20]، ونظرا لخطورة هذا الأمر، اجترأ التوحيدي على حرق كتبه خوفا من أن تكون هذه الكتب حجة عليه لا له[21]. ويعضّد المتكلم هذا المسير الحجاجي بتوظيف تقنية حجاجية أخرى، هي الحجة النفعية[22]، وتتجلى في قوله:"

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

وممّا شحذ العزم على ذلك (أي حرق كتبه) ورفع الحجاب عنه أني فقدت ولدا نجيبا، وصديقا حبيبا، وصاحبا قريبا، وتابعا أديبا، ورئيسا مثيبا، فشقّ عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنّسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشتمون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها"[23]. تقوم هذه التقنية الحجاجية على جنوح المتكلم إلى إقناع خصمه بصحة فعله بناء على النتائج التي ستترتب عليه، حيث "تعمل هذه الحجة على نقل القيمة من النتيجة إلى السبب الذي كان وراء حدوثها، إنها ضرب من الحجاج الذي يقوم على العلاقات السببية، ولكنه بدل أن يهتم بالأسباب ينظر إلى النتائج"[24]. فالتوحيدي أفصح عن النتيجة التي كان يطمح إليها وراء تأليف هذه الكتب قائلا:" على أني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم، ولمدّ الجاه عندهم، فحرمت كل ذلك كله"[25]. بيد أنه لم يحقق شيئا مما كان قد رسمه في باله، وعليه فإن النتيجة المضادة التي دفعته إلى الإقدام على إضرام النار في مؤلفاته هي فقدان أصدقائه وأقربائه بسببها، وخوفه من أن يتركها لأعدائه ليتلاعبوا بها ويحرفوا ما جاء فيها، ويدنسوا عرضه بسببها. لقد نهضت هذه النتيجة السلبية بدور حجاجي مهم في عملية الإقناع، إذ تسوّغ الفعل (حرق الكتب) وتشرّعه، لأن المتلقي سيتعاطف مع هذه النتيجة السلبية وسيتقبلها.

ويرتكن المتكلم إلى تدعيم خطابه بتقنية حجاجية أخرى، ويتعلق الأمر بحجة السلطة، و" هي التي تُستثمر فيها هيبة شخص أو مجموعة أشخاص لدفع المخاطب إلى تبني دعوى ما"[26]. وتتخذ هذه الحجة مقتضيات مختلفة ومتعددة وليست مقصورة فقط على الشخص أو مجموعة أشخاص، إذ "قد تتمثل في 'الإجماع' و'الرأي العام' و'العلم' و'العلماء' و'الدين' و'الشعر' و'الشعراء' و'الحكماء' و'البلغاء'."[27] وقد استثمر المتكلم هذه الحجة للدفاع عن دعواه، إذ إنه استدعى أشخاصًا يمتلكون سلطة معرفية في التاريخ العربي القديم، وحاجج

المخاطَب بأعمالهم، وتشترك هذه الشخصيات كلها في قيامها بالعمل نفسه وهو: طمس الكتب[28].

تشكّل هذه الشخصيات، في هذا المقام، حجج سلطةٍ يثق فيها المتلقي ويسلّم بها، وقدّمها المتكلّم له على أنها "قدوة" و"أسوة" يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم، ويُعشى بنارهم[29]. ومادام أن هذه الشخصيات التي تعدّ المثل الأعلى، والقدوة الأسنى قد تخلّصت من كتبها، فتأسيها والسير على نهجها أمر محمود حتى وإن تعلق الأمر بسلوك هجين كحرق الكتب. والملاحظ أن التوحيدي دعّم هذه الحركة الحجاجية بحجة التسمية، وهي "شكل من أشكال النعت"[30] وتنبني هذه الحجة، في نص الرسالة، على إسناد النعوت والصفات لتلك الشخصيات، ولا تخلو هذه النعوت من أبعاد حجاجية تقوّي دعوى المتكلّم. ونوضح حجج السلطة التي ارتكن إليها المتكلم والمتعالقة بحجج التسمية في الجدول التالي:

حجة الشخص	حجة التسمية	حجة عمل الشخص
عمرو بن العلاء	كان كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف.	دفن كتبه في بطن الأرض فلم يُوجد لها أثر.
داود الطائي	كان من خيار عباد الله زهدا وفقها وعبادة. ويقال له تاج الأمة.	طرح كتبه في البحر.
يوسف بن أسباط	----	حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحها فيه وسدّ بابه.
أبو سليمان الداراني	----	جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار.
سفيان الثوري	----	مزّق ألف جزء وطيّرها في الريح.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

أبو سعيد السيرافي	شيخنا، سيد العلماء	قال لولده محمد: قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الآجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار.

لقد سعى المتكلم إلى استدعاء هذه الشخصيات مستثمرا قيمتها المعنوية، وسلطتها المعرفية، للانتصار لدعوى "حرق الكتب" التي يدافع عنها في الرسالة، إذ جرت العادة في الحجاج أن "يستدعي الخطيب شخصا يمتلك حظوة عند المخاطبين لتثمين الأفعال؛ فهناك اتفاق مسبق بين الخطيب والسّامعين على أنّ هذا الشخص يمثّل سلطة تؤول إما لكفاءته أو لحظوته أو لمكانة يتميّز بها في المجتمع أو الفريق أو العائلة أو القبيلة أو الجيل أو الحزب أو جماعة دينية أو عند الشخص نفسه"[31].

وإضافة إلى ما سبق، يحضر 'السرد' بوصفه مكونا حيويا يعزّز البناء الحجاجي داخل متن الرسالة، وذلك عبر استدعاء جماع من الوقائع والأحداث التي تخدم دعوى المتكلم، وبناءً عليه، لا يعتبر السرد "أداة للإمتاع فقط، ولكنه أيضا أداة للتواصل تتغيا الإقناع وتسليط المعرفة"[32]، إذ إنّ السرد لا يقوم على مبدأي الحياد والموضوعية، بل إنه "سردٌ موجهٌ"[33] فيه يصطفي المتكلم وقائعَ محددة لتأكيد موقفه وتعزيزه. وعلى هذا النحو سار التوحيدي في ردّه على القاضي أبي سهل، إذ قام بتوظيف ثلة من الوقائع يروم من خلالها تقوية موقفه تجاه قضية حرق الكتب، ومن أمثلة ذلك قوله:" وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضراوات في

الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالنفاق والسمعة، وإلى مالا يحسن بالحرّ أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان بادية لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك"[34]. يختزن هذا الملفوظ السردي أبعادا حجاجية وتأثيرية واضحة؛ فالمتكلم يسرد وقائع تجسّد معاناته وآلامه ومحنه بوصفها سببا من الأسباب التي جعلته يُؤْثر طمس كتبه والتخلص منها على أن يتركها في أيد غير آمنة، وأناس يكنّون له الحقد والشنآن، وصحبة تخلت عنه في أوقات الشدة.

كما يختزن هذا الملفوظ طاقة تأثيرية تستهدف إثارة أهواء المخاطب ونوازعه، وهو ما يؤكد امتزاج السرد باستراتيجية الباتوس[35]؛ فالمتكلم عمد إلى عرض هذه الوقائع التي تلخص الآلام التي اعترضت طريقه، والندوب التي جرحت قلبه، والمواقف التي حطّت من كرامته، من أجل تهييج انفعالات المخاطب وحثّه على التعاطف معه والإشفاق عليه، ومن ثم تصديق موقفه وقبول دعواه. ويمكن الوقوف عند ملفوظ آخر يقول فيه التوحيدي:" والله يا سيّدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان، في هذا الصقع، من الغرباء والأدباء والأحبّاء لكفى، فكيف بمن كانت العينُ تقرّ بهم والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والريّ وما إلى هذه المواضع، وتواتر إليّ نعيهم واشتدّت الواعية بهم"[36]. إن آلية السرد في هذا الملفوظ تشتغل حجاجيا في إثبات دعوى المتكلم؛ فالأحداث المشار إليها تؤكد مراجعة التوحيدي لذاته، وتفطنه إلى أن كتبه جنت عليه؛ فهي السبب في انصراف الناس عنه، وفقدانه لأصحابه وأصدقائه. وبالأوبة إلى أبجديات الكتابة عند التوحيدي نلفي أن "منهجه القاسي الذي سار عليه مع غيره من الناس، والذي رفض فيه المجاملة الرخيصة، والنفاق الكاذب، والمؤاخاة الزائفة، هو الذي حرمه عطايا وهبات الوزراء وأصحاب الرياسة التي ظفر بها ما هو دونه علمًا وأدبًا، فعاش فقيرا ومات فقيرًا دون أن تهبه الحياة شيئا من مباهجها ومسارتها فعاش منها مهمّشا طريدًا"[37]. ولا شك أن هذا الملمح الذي طغى

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

في كتابات أبي حيان التوحيدي تسبب أيضًا في انفضاض الأصحاب من حوله، وبقائه وحيدا وغريبا عن أهل زمانه ونفسه وكتبه.

وإلى جانب ما ذكر في التحليل الآنف، تنجلي لنا في ثنايا الرسالة استراتيجية الإيتوس[38]، إذ نثر المتكلم ملفوظات ترسم صورة عن ذاته، ويمكن استجلاء صورة الذات من خلال مظهرين اثنين:

- **صورة الذات قبل حرق الكتب**: وتتجلى في ظهور المتكلم في مظهر الإنسان المنغمس في المطالب الدنيوية، بحيث يعترف بانصرافه إلى التأليف وجمع الكتب طلبا للجاه والرياسة ورحلاته من بلاط إلى بلاط، ومن وزير إلى آخر، تكشف لنا ديدن أبي حيان في تحسين وضعيته الاجتماعية المتأزمة. والتي سلّط الضياء عنها في هذه الرسالة كما أشرنا سابقا.

- **صورة الذات بعد حرق الكتب**: في هذا المظهر، تختلف صورة الذات إذ يمكن القول إن ذات المتكلم انتقلت من "الغفلة" إلى "الانتباه"[39]، إذ تسامت عن الماديات، وترفّعت عن الشهوات، وزهدت في الملذات. وتعكس هذه الصورة البعد الصوفي الذي يتصف به أبو حيّان، ويمكن تلمّس هذا البعد في ملفوظات مختلفة نذكر منها قوله:" وهل لي بعد الكبرة والعجز أملٌ في حياة لذيذة أو رجاء لحال جديدة؟"[40]. يفصح هذا الشاهد عن زهد واضح لدى المتكلم في ملذات الحياة بعد أن بلغ من الكبر عتيا، إذ تغيّرت نظرته للعالم، وأصبح هدفه من وجوده هو بلوغ الدرجات العلى، يقول:" وهل أدرك السلف الصالح في الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح والإخلاص المعتقد والزهد الغالب في كلّ ما راق من الدنيا بالزبرج وهو بصاحبه إلى الهبوط؟ وهل وصل الحكماء القدماء إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد في السعي وإلا بالرضى بالميسور وإلا بذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم؟"[41]. إن العمل الصالح والزهد والقناعة من أهم القيم التي تسعى الصوفية تلقينها للنفس، والواضح أن المتكلم قد درّب نفسه

عليها، وأصبح مؤمنا بها، فاعلا لها. وإذا كانت "الدنيا" أكبر همّه في الصورة الأولى، فإن "الآخرة" في الصورة الثانية من تشغل باله وتثير هاجسه، ونستشف هذا من قوله:" الرحيل والله قريب والثواء قليل، والمضجع مقضّ والمقام ممض، والطريق مخوف والمعين ضعيف، والاغترار غالب، والله من وراء هذا كلّه طالب، نسأل الله تعالى رحمة يظلنا جناحها"[42]. لقد تنبّه التوحيدي لغفلته؛ فالرجل الذي ملأت الدنيا قلبه، وسعى سعيا حثيثا نحو التقرب من السلطة، راسما أملا لاح له في الأفق، طامعا في رغد العيش وترف الدنيا، انتبه إلى ذاته اللاهثة وراء الزوائل، والغائصة في مستنقعات الماديات، واستفاق إلى جسمه الذي أرهقه النحول، وعمره الذي ذهب في استجداء الآخرين والتوسل إليهم.

قراءة تركيبية:

لقد أثث المتكلم/ التوحيدي خطاب الرسالة بما يؤكد ارتكانه إلى المحاججة والمجادلة لتبرير فعله؛ فالتنصّل من الاعتذار المباشر، والمراوغة في استمالة المخاطَب، والانتقال في بسط الحجج وتنويعها، كل هذا يبرز الموقف التواصلي القضائي لخطاب الرسالة[43]؛ لأن التوحيدي في موقع المتّهم المدان بارتكاب جريمة؛ فـ"حرق الكتب والمكتبات جريمة لا تُغتفر في حق الذاكرة الإنسانية"[44]. وعليه، انبرى إلى الدفاع عن فعلته، وإسباغ طابع الشرعية عنها. وعلى اعتبار أن هذا الموقف القضائي يقتضي الاستناد إلى استراتيجية اللوغوس أو الحجج العقلية[45]، فقد بدا المتكلم في مظهر المحاجج المتمسّك برأيه والمقتنع به. ولعل هذا اللّجاج الذي طبع خطاب المتكلم يذكرنا بقوله: "لا تأتي ما تأتي إلا وأنت واثقٌ بعاقبته ومرجوعه، ولا تدع ما تدع إلا وأنت محسوم الطمع من خيره ومردوده"[46]. فالواضح أن أبا حيّان كان مقتنعا بما قام به من حرق كتبه، ونستشف هذا محاولته صرف موضوع الرسالة عن قضية "حرق الكتب" إلى أسباب هذا الفعل، وهنا تكمن استراتيجية اللّجاج. لقد تمسّك المتكلم برأيه رغم علمه أنه بعيد عن جادّة الصواب؛ فحرْقُ الكتب مسألة منبوذة، ولا يمكن قبولها بحال؛ لأن الكتب والعلم عموما حقه أن ينشر بين الناس ليغترفوا ويستزيدوا منه؛

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

فقد قال ابن قتيبة: "زكاة المال الصدقة، وزكاة الشرف التواضع، وزكاة الجاه بذله، وزكاة العلم نشره، وخير العلوم أنفعها، وأنفعها أحمدها مغبّة وأحمدها مغبّة ما تعلم وعلم لله، وأريد به وجه الله تعالى"[47].

لقد درج القدامى على استعتاب أصدقائهم، وغالبا ما نبع هذا العتاب من مشاعر صادقة تسعى إلى تأنيب الضمير، وتسديد الرأي، وتوجيه السلوك؛ فـ"الاستعتاب المنفعة به بيّنة في تلافي من تريد تلافيه، واستصلاح من لك رأي فيه"[48]. وينسجم عتاب القاضي أبي سهل مع هذا التوجّه، فقد رأى أن أبا حيان أذنب بحرقه للكتب فناشده الاعتذار عمّا اقترفه، لأن الاعتذار يمحو الذنب، و"الاعتراف يُزيل الاقتراف"[49]، وكما قال الشاعر[50]:

إذا اعتذر الجاني محا العذرُ ذنبَه *** وكلُّ امرئٍ لا يقبلُ العذرَ ظالمُ

إن انصراف المتكلم إلى اللجاج، ومزج اعتذاره بالاحتجاج، وتمسّكه بموقفه تجاه قضية التخلّص من الكتب، واستثمار بعض الحجج في استدلالات مغالطة، كل هذا جعله يتورّط في الذنب ويلتصق به أكثر، لأن الاقتناع بالأفعال يغنينا عن الاحتجاج والاعتذار، وقد نبه ابن وهب الكاتب إلى هذه المسألة قائلا:" ولا تخلط الاعتذار إذا وجب أن تعتذر بالاحتجاج، فإن ذلك يدل على مقامك على الذنب... فإن مزج الاعتذار بالاحتجاج يدلّ على استئناف الذنب"[51].

بيد أن تقييم هذا الحدث بعيدا عن التحولات الفكرية التي رافقت أبي حيان التوحيدي، يعد ضربا من الافتراء على صاحبه، إذ لا بد من استحضار البعد الصوفي الذي استأثر باهتمامات التوحيدي في أواخر حياته، وبناء عليه لا يمكن الجزم بارتياح معرفي تام أن البؤس والفقر والخيبة والفاقة كل هذا كان وراء اجتراء أبي حيان على حرق كتبه، لأن الأمر يتعلق بعمق فكري، ونظرة صوفية ارتهن إليها قبل إقدامه على ذلك.

الهوامش:

[1] يعود الفضل في حفظ هذه الرسالة ونقلها إلى ياقوت الحموي، أُنظر كتابه: "معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، تحقيق إحسان عباس، الجزء الخامس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة 1993. ص: 1929 وما بعدها.

[2] اللَّجاج هو التّمادي في الأمر ولو تبيّن الخطأ/ تاج العروس.

[3] "الموضع هو آلة لصناعة المقدّمات" كما يقول برونشفيغ Brunshwig، أُنظر: نظرية المواضع عند أرسطو من خلال كتاب الطوبيقا، حاتم عبيد، ص: 21. وقد اعتبره أرسطو "الأساس في عملية البرهنة والحجاج". نفسه، ص:7.

[4] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص:1929.

[5] حافظ إسماعيلي علوي (إشراف)، الحجاج والاستدلال الحجاجي: دراسات في البلاغة الجديدة، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 2011م، ص: 96.

[6] تفسير ابن كثير، المجلد السادس، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ص: 261.

[7] محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، ص: 66.

[8] الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج: الأصول اليونانية، ص: 322.

[9] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص: 1929.

[10] نفسه، ص: 1929.

[11] "هي آراء أوقع التصديق بها قول من يوثق بصدقه فيما يقول، إما لأمر سماوي يختص به، أو لرأي وفكر قويّ تميّز بهن مثل اعتقادنا أمورًا قبلناها عن أئمّة الشرائع قبل أن نتحقّقها بالبرهان أو شبهه". أُنظر: عبد الله البهلول، الحجاج الجدلي: خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، دار كنوز المعرفة، ط1 سنة 2016م.هامش الصفحة: 105.

[12] يقول فيليب بروطون:" إن استدعاء افتراضات مشتركة يستعمل بشكل واسع، وخاصة في كل الحالات التي يوجد فيها مسبقا اشتراك واضح في التفكير والفعل بين الخطيب والمتلقي، فاستدعاء الافتراضات المشتركة يترتب عليه إذن "تأثير الاشتراك" الذي يشكل صنفا من أصناف الحجاج المحافظ إجمالا في تأثيراته". أُنظر: الحجاج في التواصل، ترجمة: محمد مشبال وعبد الواحد العلمي. ص:89.

[13] يشير مفهوم الإقناع إلى حمل المخاطب على تعديل فكرته وتبني الفكرة المضادة، يعرفه حازم القرطاجني (684ه) بكونه: "حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده". أُنظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 20 ط1 سنة 2006. ويعرفه عبد الهادي الظفيري بأنه:" عملية خطابية يتوخى الخطيب تسخير المخاطب لفعل أو ترك بتوجيهه إلى اعتقاد قول يعتبره كل

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

منهما شرطا كافيا ومقبولا للفعل أو الترك". أُنظر: استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص: 451. وفي المنحى نفسه يرى هنريش بليث أن الإقناع هو:" إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي". أُنظر: البلاغة والأسلوبية، ص: 102.

[14] عبد الله البهلول، مرجع مذكور، ص:321

[15] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص: 1930.

[16] الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييمبيرلمان، ص: 62.

[17] عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 93.

[18] نفسه، ص: 93

[19] يقول أحد الباحثين مشيرا إلى هذا المعنى:" التحديد هو طرح علاقة تعادل أو تكافؤ لأجل منح المفهوم معنى. وهو في الغالب مقدمة للحجاج، ما دمنا نروم في تحديدنا لمفهوم ما، التوافق مع المتلقي حول أسس مشتركة لأجل إقناعه بشكل أفضل." نقلا عن: محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، ص:73.

[20] هناك آيات قرآنية تؤكد هذا المعنى مثل:

- (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون) سورة الصف: آية 2.
- (كبر مقتا أن تقولوا مالا تفعلون) سورة الصف، آية 3.

[21] وردت هذه الجملة في نص الرسالة بصيغة المتكلم: "وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجةً عليّ لا لي".

[22] يعرّفها شاييمبيرلمان بقوله:" أسمي حجة نفعية حجة النتائج التي تقيّم فعلا أو حدثا أو قاعدة أو أي شيء آخر تبعا لنتائجه الإيجابية أو السلبية." نقلا عن الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييمبيرلمان، ص: 72.

[23] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص: 1930.

[24] محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، ص:77.

[25] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص: 1930.

[26] الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييمبيرلمان، ص: 79، أُنظر أيضا مقال للكاتب نفسه، بعنوان: البنية الحجاجية في نص مفهوم التعايش في الإسلام لعباس الجراري، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 1، خريف 2012م، هامش الصفحة:145.

[27] محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، ص: 84. وأُنظر أيضا: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييمبيرلمان، ص:79. وأيضا: " الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من

خلال 'مصنف في الحجاج/ الخطابة الجديدة' لعبد الله صولة، ضمن كتاب:" أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم"، ص: 335.

[28] اخترنا هذه التسمية لكونها تعبيرا عن الهدف الذي سعى إليه أولئك الكتاب؛ فهدفهم واحد، أما الوسيلة فتختلف من شخص إلى آخر، إذ هناك من أحرق كتبه، وهناك من دفنها، وهناك من أغرقها في البحر، وهناك من خبّأها في غار، وهناك من مزقها.

[29] يهتدي بنور علمهم، جاء في لسان العرب:" العشو إتيانك نارا ترجو عندها هدى أو خيرا".

[30] الحجاج في التواصل، ص: 106.

[31] محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص: 147.

[32] محمد مشبال، البلاغة والسرد: جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ص: 13

محمد مشبال، السرد الحجاجي في رسائل الجاحظ، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 2، ص: 84

[33] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص: 1930.

[34] "الباتوس لفظ عام يدل على مجموعة من الأهواء التي يثيرها الخطيب في السامع لحمله على قبول دعواه أو وجهة نظره. وتعد إثارة أهواء المخاطب (الباتوس) إحدى الاستراتيجيات الخطابية الحجاجية الثلاث التي تناولها أرسطو في نظريته البلاغية". محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص:257.

[35] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص: 1931.

[36] لطفي محمد الجودي، فعل الكتابة النثرية عند أبي حيان التوحيدي، ص:61.

[37] "يستخدم الإيتوس في الخطاب الحجاجي للدلالة على تأثير الذات في الآخرين؛ فلما كان كل خطاب حجاجي يروم التأثير، وكان كل خطاب يقدم صورة عن الذات، فإن صورة الذات تصبح شكلا من أشكال الإقناع والتأثير". محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص: 176.

[38] استعرنا هذين المصطلحين من كتاب" التوحيدي: الغفلة...الانتباه" لدة. هالة أحمد فؤاد. دار المدى، ط1، سنة 2015 م.

[39] معجم الأدباء، ص:1930.

[40] نفسه، ص: 1932.

[41] نفسه، ص: 1932.

[42] أصناف الخطابات ثلاثة: القضائي والاستشاري والاحتفالي، أُنظر كتاب: "بلاغة الحجاج: الأصول اليونانية" للحسين بنو هاشم، ص: 229. ومقال: البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج، لعبد الله صولة، ص:29، ضمن كتاب:" الحجاج مفهومه ومجالاته" ج1، عالم الكتب الحديث، الطبعة1، سنة 2010م.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

[44] ناصر بن رجب:"حرق الكتب عندنا وعندهم" مقال منشور بموقع "إيلاف"/ www.elaph.com، نشره صاحبه بمناسبة تدمير حركة طالبان لتماثيل بوذا.

[45] يشير الباحثون إلى أن الاستراتيجية الحجاجية المناسبة في المقام القضائي هي اللوغوس، يقول عبد الله صولة مثلا:" وأما الخطبة المشاجرية (القضائية) التي غايتها بيان العدل والظلم وقوامها الاتهام والدّفاع فتناسبها حجّة اللوغوس، أي الكلام نفسه." أُنظر مقاله:" البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج"، مقال مذكور.

[46] أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص:1.

[47] ابن قتيبة، عيون الأخبار، المجلد 1، ص:9.

[48] البرهان في وجوه البيان، ص: 276.

[49] نفسه، ص: 277

[50] نفسه، ص: 277.

[51] نفسه، ص: 288-289.

المصادر:

- ياقوت الحموي، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، تحقيق إحسان عباس، الجزء الخامس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة 1993.

المراجع:

- ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، سنة 2012م.
- أبو حيّان التوحيدي، أخلاق الوزيرين: مثالب الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد، تحقيق: محمد بن تاويتالطّنجي، دار صادر–بيروت، سنة 1992م.
- حاتم عبيد، نظرية المواضع عند أرسطو من خلال كتاب الطوبيقا، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.
- حافظ إسماعيلي علوي (إشراف)، الحجاج والاستدلال الحجاجي: دراسات في البلاغة الجديدة، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 2011م.
- الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج: الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، سنة 2014م.
- الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييمبيرلمان، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، سنة 2014م.
- عبد الله البهلول، الحجاج الجدلي: خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي."، دار كنوز المعرفة، الطبعة الأولى، سنة 2016م.
- عبد الله صولة، دراسة: "البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج"، ضمن كتاب جماعي:"الحجاج مفهومه ومجالاته" ج1. عالم الكتب الحديث، الطبعة1، سنة 2010م.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

- لطفي محمد الجودي، فعل الكتابة النثرية عند أبي حيان التوحيدي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 2011م.
- محمد مشبال:
- خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ: مقاربة بلاغية حجاجية، دار كنوز المعرفة، الطبعة الأولى، سنة 2015م.
- في بلاغة الحجاج: نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوظ المعرفة، الطبعة الأولى، سنة 2017م.
- البلاغة والسرد: جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، الطبعة الأولى، سنة 2010م.

الدّراسات:

- محمد مشبال: "السرد الحجاجي في رسائل الجاحظ"، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد الثاني، ربيع 2013م.